الفصل الخامس

الروايات القومية في تسوية خلاف الهويات

يهوديت أورباخ[٤٨]

مقدمة

يتطلب الصراع الإسرائيلي الفلسطيني كثيرًا من الضحايا وأثمانًا باهظة من كلا الطرفين. وفي المقابل تجرى محاولات كثيرة لحل أو تسوية الصراع بالديبلوماسية التقليدية (one track diplomacy)، وأساسها المفاوضات بين ممثلين شكليين للأطراف، مثل عملية أوسلو، أو الديبلوماسية البديلة (two track diplomacy) التي تعتمد على اتصالات مباشرة بين الشعوب المتشددة من خلال طرف ثالث (Kelman, 1979, 1987, 1997) أو بدونه (Maoz 2000) وحتى الآن لم تنجح هذه الأطراف في التوصل إلى تسوية الخلاف.

يدعي هذا المقال أن الصراع الإسرائيلي الفلسطيني هو صراع هُوِّياتي راسخ في النصوص العليا وفي الروايات القومية المتعارضة، ولذلك يصعب تسويته. ومع ذلك فإنه يمكن تقليص الفجوة بين الأطراف من خلال التفرقة بين النصوص العليا والروايات القومية (وهي تفرقة سوف تتحقق فيما بعد) وفي أعقابها يتم التوصل

(٤٨) أود أن أشكر المحرر، الأستاذ الدكتور يعقوب بر سيمان طوف، وزملائي الأستاذ الدكتور هليل فريش، والأستاذ الدكتور يتسحاق رياطر، والأستاذ الدكتور شموئيل سندلر، على ملاحظاتهم التي أثرت البحث وأفادت في الصياغات الأولية للمقال.

obeikandl.com

إلى تقليل التوقعات، وتغيير النصوص العليا المتعارضة والتركيز على محاولة رأب الصدع بين الروايات القومية المتصادمة.

سأعرض في البداية مناقشة نظرية، أميز في وسطها بين صراع الهويات والصراع المادي وأيضًا بين النصوص العليا والروايات. سأورد في معرض الدراسة نماذج من صراعات استعانت عملية تسويتها بآليات إنهاء الروايات، وفي النهاية سأركز على الصراع الإسرائيلي الفلسطيني كنموذج لصراع الهويات. وسأعرض النصوص العليا في كلا الطرفين وأظهر كيف أن التركيز على الروايات القومية، بدلًا من النصوص العليا، يمكن أن يؤدي إلى تسوية الصراع.

الصراع المادي وصراع الهويات

الصراع المادي هو صراع على ممتلكات «واقعية» ومادية مثل الأرض والمياه والنفط والحدود والأمن وما شابه ذلك. على سبيل المثال، كانت مناطق الزاس لوران ذريعة لخلافات بين ألمانيا وفرنسا عبر سنوات طويلة، انتقلت خلالها من يد إلى أخرى (في حروب 1914، 1870 و1939) وأشعلت العداء بين الدولتين. أدى انتصار الحلفاء على ألمانيا في الحرب العالمية الثانية، إلى إعادة هذه المناطق إلى فرنسا كجزء من إنهاء الصراع. وهذا نموذج للصراع المادي الذي يسوى بالطرق الديبلوماسية التقليدية. وعلى نفس النمط، موافقة الحكومة الإسرائيلية على إعادة شبه جزيرة سيناء لمصر (بما في ذلك منطقة النزاع في طابا) بعد مفاوضات مستمرة بين ممثلي الدولتين، كان شرطًا حتميًا لتسوية الصراع بينهما، حتى وإن لم يكن كافيًا لتحقيق سلام دافئ.

تظهر هذه النماذج وغيرها أنه يمكن حل وتسوية الصراعات الخطيرة. وأحيانًا تكون جزء من صراع أكبر، له أبعاد أيديولوجية ورمزية، وبالتالي فإنه يصعب جدًا تسويته (مثل الصراع الإقليمي بين إسرائيل وسوريا،الذي يحوم حوله ظل صراع

الهوية الوطني العرقي مع الفلسطينيين، أو الصراع بين الهند، وباكستان والصين حول إقليم كشمير). وفي بعض الأحيان يكون الصراع ماديًا فقط، مثل الصراع بين اليابان وروسيا حول ما تسميه اليابان «المناطق الشمالية» وتسميه روسيا «جزر الكوريل الجنوبية». ويمكن أن تكون إجراءات تسوية خلاف من هذا النوع مستمرة ومعقدة، لكن ما إن تقرر الأطراف أن ثمن استمرار الصراع على مناطق الخلاف يمكن أن يزيد عن ثمن تسويته، يمكن أن ينهيا الموضوع بالديبلوماسية التقليدية.

صراع الهويات هو في المقابل، الصراع الذي يعتبر فيه أحد الأطراف على الأقل أن هوية الطرف الثاني القومية، أو ترجمة هذه الهوية إلى المجال السياسي ـ أي دولة القومية ـ يمكن أن تشكل خطرًا على هويته هو القومية. لذلك، فإن هذا الطرف يرفض تعريف الطرف الثاني كقومية، أوعلى الأقل رفض حقه في تحقيق هويته هذه في إطار دولة قومية. الصراع الإسرائيلي الفلسطيني هو في أساسه صراع هويات؛ لأنه في الأساس وسبب استمراره يرجعان إلى إنكار قومية الطرف الثاني وحقه في إقامة دولة في أرض فلسطين. وعلى مدى أكثر من 100 سنة صراع رفض الطرف الفلسطيني، المؤيد من الدول العربية، الاعتراف بحق السعي اليهودي إلى إقامة دولة على جزء من فلسطين. ومن جانبهم يرفض الفلسطينيون، هويتهم القومية وحقهم في إقامة دولة في مناطق فلسطين ويعتبرون ذلك مبررًا لأعمال العنف المتواصلة ضد الاستيطان اليهودي ودولة إسرائيل. هذا التغيير الجوهري في الصراع الإسرائيلي العربي حدث في ساحة العلاقات بين مصر وإسرائيل في التوقيع على اتفاق السلام بينهما عام 1979. وفي مقابل ذلك، في المجال الإسرائيلي الفلسطيني لم يحدث تغيير

واقعي في طبيعة صراع الهويات. واعتبر الفلسطينيون (على الأقل حتى عام 1988) أن صراعهم ضد إسرائيل يهدف إلى تصفية إسرائيل كدولة يهودية، كما تجلى ذلك في الميثاق الوطني الفلسطيني. ومن ناحية أخرى اتخذت إسرائيل خطوات عملية ملموسة في رفض حق الفلسطينيين في إقامة دولة فلسطينية في مناطق الضفة الغربية وقطاع غزة، التي احتلتها عام 1967. وأي اعتدال في موضوع صراع الهويات حدث في عملية أوسلو، لكن هذه العملية لم تنضج بما فيه الكفاية لكي تسوى. زاد في السنوات الأخيرة استعداد الطرف اليهودي الإسرائيلي للاعتراف بهوية الفلسطينيين القومية[49]، بينما لدى الفلسطينيين ـ وبخاصة مواطني إسرائيل ـ أصبح الصوت الرافض لهوية الشعب اليهودي الوطنية وحقه في وطن قومي خاص، أكثر وضوحًا وحدة. وسنعود إلى هذه النقطة لاحقًا.

الروايات القومية والنصوص العليا

الرواية، بما في ذلك، الرواية القومية، هي قصة (story وهناك من يدققون ويقولون: «قص») عن أحداث وقعت في زمن تاريخي أو ما يحدث في الواقع. هذه الرواية لها وحدة حدث درامية تنمو على محور الزمن، مع نقاط واضحة من بداية ونهاية. تحفر الرواية في الذاكرة بفضل وحدتها الداخلية، التي تتحقق من خلال هيكل صلب وواضح قائم على خمسة مكونات (Shuman, 1903) تعرف في التطبيقات الصحفية بأنها الميمات الخمسة: من؟ وماذا؟ ولماذا؟ ومتى؟ وأين؟ (ترجمة تقريبية إلى حد ما للصياغة الإنجليزية: Who, What, When, Where and Why. وتعتمد وحدة الحدث

(٤٩) في مقالهم الرأي العام والأمن القومي 2007 يورد بن مائير وشاكيد نتائج استطلاعات الرأي التي نشرت على مدى ثلاث سنوات (2005–2007) وأجراها معهد لوسيل كاهان لبحوث الرأي العام في جامعة تل أبيب، بدعوة من معهد بحوث الأمن القومي. تشير الاستطلاعات إلى تأييد لا يقل عن 55٪ من المواطنين اليهود في إسرائيل لحل الدولتين لشعبين، الذي يعد في أساسه فرضية بشأن وجود كيان فلسطيني قومي واضح (بن مائير وشاكيد 2007.

على علاقة منطقية بين هذه المكونات الخمسة وتعطي للقصة قوة وتساعد على حفظها في الذاكرة.

الروايات القومية هي قصص ملموسة عن أحداث درامية في التاريخ القريب أو البعيد لشعب ما. تدور هذه القصص حول بطل قومي ذي قوى روحية أو جسدية أسطورية، يجسد روح الشعب وهويته القومية، ويوفر له مصدر الفخر القومي والعزاء في أوقات الانكسارات. وهناك نموذج واحد من كثير هو نموذج يوسف ترومبلدور، البطل المسلح الذي قتل أثناء القتال دفاعًا عن تل حاي وعلى فمه الكلمات الأسطورية: «جميل أن نموت دفاعًا عن أرضنا». ومثل باقي الحالات من هذا النوع، يخلد البطل في قصص التاريخ، والأشعار والقصص والنصب التذكاري الذي يؤمه الشباب كل عام، في ذكرى وفاته.

لقد حول الباحثون الأكاديميون قصة ترومبلدور إلى «أسطورة» ـ قصة أسطورية يمكن التشكك في مصداقيتها التاريخية ومن المهم أن ندرس طرق وصولها إلى الوعي الجمعي (زروبابل :1996) لكن بالنسبة للأولاد الذين أنشدوا أغنية أبا حوشي «في الجليل في تل حاي» ـ ترومبلدور هو بطل حقيقي وواقعي، قصته، مثل قصة حرب يهودا المكابي ضد الإغريق أو قصة بار كوخفا ضد الرومان، هي فقرة في سلسلة قصص التعذيب والبطولة التي تنتقل من جيل لآخر ويسميها (Volkan : 2004) بإسم (Chosen traumas و Chosen glories) هذه روايات قومية تجسد للشعب ـ وبخاصة للشباب في استيطان ما قبل الدولة والدولة، أن الأمة قد قامت الآن لتحارب من أجل وجودها- ومن أجل القيم الإيجابية اليهودية والقتال العنيد إلى حد التضحية بالذات. وتتبع قوة هذه الروايات من علاقتها القوية بالنصوص العليا.

النص الأعلى هو قصة عليا: الإطار الكلي الهيراركي الذي يحتضن الروايات القومية، يخلقها ويغذيها، بينما نجد أن الروايات القومية تحيي وتقوي النصوص العليا وتغذيها. يقول جان فران وا لويتر، من كبار مفكري ما بعد الحداثة، أن أحد

السمات البارزة لما بعد الحداثة هي الشك المتزايد في النصوص الأعلى الكبيرة: المسيحية، التنوير، الماركسية، الليبرالية، إلخ. ومع ذلك فهو يعترف بأن النصوص العليا ما زالت تؤثر تأثيرًا بالغًا على الشعوب (Lyotard 1992: , 1988). ويبدو أن هذا التحديد سليم خاصة بالنسبة للشعوب التي تعيش في المراحل الأولى من بناء هويتها، ونتيجة لذلك ـ في حالات كثيرة ـ نجدها أيضًا في الصراع مع كيان قومي آخر، تبني هويتها ضده. وتتضمن النصوص العليا القومية الأرضية الفكرية والقيمية للقومية التي تبنى وتمثل روحها وتبرير بنائها ووجودها. ومن هنا تأتي قدسية وفعالية النص الأعلى ومن هنا أيضًا تأتي المعارضة وصعوبة الاحتجاج عليه وتغييره.

يرد النص القومي الأعلى على ثلاثة أسئلة هامة جدًا بالنسبة للمجموعة التي تتعامل مع غيرها من أجل حقها في هوية قومية وترجمة هذه الهوية إلى سيادة على الأرض المختلف عليها بينهما. 1 ـ من نحن؟، 2 ـ ماهي علاقتنا وحقنا في أرض الصراع؟ 3ـ ما هو دورنا في التاريخ بصورة عامة وأمام المجموعة الثانية بصورة خاصة؟

الحوار الأكاديمي عن المعنى الموضوعي -الأساسي للهوية القومية Smith: 1993 في مقابل معناها الذاتي «المتخيل» (Gellner; Hobsbawm: , 1990 Anderson: , 1983 1983) يتردد في النقاش «الحقيقي» بين جماعات قومية مختلفة. وفي كثير من الأحيان يتم تداوله كثيرا ليصل إلى مواقف متناقضة، على غرار: نحن قومية منذ الأزل، لها علاقة تاريخية ثابتة بالأرض التي توجدون أنتم عليها كطائفة دينية (أو ثقافية، أو اجتماعية، لكن ليس قومية) تزعم بالهوية القومية ـ وتطالب بالملكية. بمعنى، بنا تقام وتثبت النظرية البدائية، بينما اخترعتم أنتم أنفسكم بصورة مصطنعة كشعب (أو قومية، أو أمة، التمييز ليس واضحًا سواء داخل الخطاب الأكاديمي أو خارجه) له مطالب لا أساس لها في أرضنا. يتعزز النص الأعلى الذي اعتمد على إجابات السؤالين الأولين ـ من نحن؟ وما هو حقنا في أرض الصراع؟ ـ بإجابة السؤال الثالث، الذي أصبح منذ منتصف التسعينيات من القرن العشرين ـ محورًا رئيسيًا

في النصوص العليا لدى طرفي الصراع القومي: نحن ضحية من يقومون علينا عبر التاريخ، وبخاصة «ضحيتكم»، يا من تعوقون هويتنا، وأرضنا وتضحياتنا.

يرغب أي شعب، في المراحل المبكرة من بناء هويته، في توريث نصه الأعلى إلى الجيل الشاب والأجيال التالية، لكي يحصن وينمي الهوية ويزيد التآلف حولها. لكن يصعب توريث الصورة المجردة للجماهير العريضة، ومن هنا تأتي الحاجة إلى نصوص قومية.

وفي الوقت الذي تكون فيه النصوص العليا قصصًا عليا عن موجدي الهوية القومية لكل طرف من الأطراف في صراع الهويات، الذي يصعب جدًا تغييره وبالتحديد في مرحلة مبكرة من تسوية الخلافات ـ نجد أن القصص القومية هي قصص من مراكز الحدث تعطيها النصوص العليا قوة وإلهام. ولولا هذه النصوص المحسوسة، لكانت القيم المجردة للنصوص العليا علامة ميتة وبلا معنى. ومن ناحية أخرى، لولا النص الأعلى لفقد النص القومي قوته وقدرته على أن يعتبر منارة تعليمية لبلورة الأمة المتكونة.

دور النصوص القومية في صراع الهويات

تبنى القصص الوطنية في صراع الهويات بصورة عامة من مجموعة تناقضات ثنائية. ترسم مكوناتها الخمس كلها بصورة واضحة وقاطعة لا تترك مجالًا للبلبلة بين «طرفنا» والطرف الثاني. تنشأ صورة المرآه وفقًا للفجوة الثنائية بين قصص أحد الأطراف وقصص الطرف الثاني، وتدفع كل طرف إلى التجاوب مع قصصه ورفض الصياغات «المضللة» من الطرف الثاني. وتقوم الرواية القومية المثالية (ideal type the) على الخاصية التالية:

من؟ بطل القصة القومية هو تجسيد للخير والنبل على الأرض، ويجسد بشخصيته الوجود القومي كله، كما هو أو كما يجب أن يكون. هكذا كان ترومبلدور أو بر كوخفا في الجانب اليهودي من الصراع ؛ وفي المقابل صلاح الدين الذي قهر الصليبيين، في الجانب الفلسطيني العربي. وعلى العكس، يمكن أن يرمز البطل أيضًا لمعاناة الشعب وتضحياته المستمرة. ويتيح بتر يدي ترومبلدور، مثل شمشون الضرير، المشاركة الوجدانية والشفقة والتبجيل، والتجاوب أيضًا. في الجانب الفلسطيني: الطفل محمد الدرة، الذي قُتِلَ (وفقًا للزعم الفلسطيني، الذي يوجد من يتشكك فيه) في 30 سبتمبر 2000 في بداية الانتفاضة الثانية، وأصبح شهيد الفلسطينيين في نهاية المطاف من خلال القصص والأشعار والنصب التذكاري وطوابع البريد (أورباخ وليفنشتاين 2009).

ماذا؟ يدور محور قصة الحدث في القصة الوطنية حول حرب الوجود لدى الطرفين. في كل نموذج من النماذج أعلاه، وكذلك أيضًا في القصص الوطنية الأخرى، تتحدث القصة عن انتصار رائع ـ وبصورة عامة إعجازي ـ تحقق بتدخل إلهي. ومن ناحية أخرى يقص عن الهزيمة المذلة «لجانبنا»، الذي يعد الصادق والشجاع والبطل، أمام الآخر الذي يعد الطرف القاتل الذي يقوم علينا لإبادتنا دون أي مبرر.

لماذا؟ إجابة هذا السؤال تلائم توقعات نظرية العزو (Jones & Nisbet: 1972) التي تعني بالفرد، لكن يبدو أن فرضياتها تنطبق أيضًا على المجموع، وبالأحرى على المجموع الذي يعيش في صراع هويات. تفترض نظرية العزو أنه في مثل هذه الحالة تتصرف الأطراف كما يلي: يعزو كل طرف أعماله الطيبة ـ مبادرة سلام، إطلاق سراح الأسرى وما شابه ذلك ـ إلى عوامل داخلية مثل حب السلام والعدل المتأصل فيه، بينما ترجع الأعمال السلبية ـ قتل الأطفال، والعمليات الإرهابية، والإحباط المركز إلى عوامل خارجية، وبصورة عامة إلى العدو، الذي يضطرنا بفجره وعدوانيته إلى التصرف على هذا النحو انطلاقًا من الدفاع الذاتي. هذا النمط يستنسخ معكوسًا

بالنسبة للعدو: ترجع أعماله الطيبة قدر الإمكان، مثل مبادرة وقف إطلاق النار، إلى ضغوط مثل الدونية العسكرية أو ضغط الدول الكبرى، بينما تعد أعماله الإجرامية نتاج دونيته المتأصلة.

أيضًا أسئلة الزمن (متى) والمكان (أين) تنساق إلى هذا النمط الثنائي

زمن الأحداث ليس أي نقطة في تسجيل النتيجة العامة، وإنما هو نقطة زمن ميتافيزيقية تربط ما حدث في الأيام الخوالي بما يحدث في هذا الوقت. يجتاز الزمن لدى طرفي صراع الهويات عملية «انهيار» (time collapse) تكون فيها التفسيرات والتصورات والمشاعر حول كارثة مشتركة حدثت في الماضي، وتتداخل مع تلك التي تنسب للزمن الحالي (Volkan, 1997: 35). يعد ترومبلدور استمرارًا لشمشون الجبار، ويهودا المكابي وبر كوخفا. فكما وصل شمشون إلى قمة بطولته في مقابل قمة تدنيه ـ عماه ـ يقول مقولته: «لتمت نفسي مع الفلسطينيين»، نجد ترومبلدور الأكتع أيضًا يصيح وقت سقوطه: «يحسن أن نموت من أجل أرضنا». هاتان الصيحتان الأسطوريتان تجسدان روح التضحية التي يجب أن يتعلمها الشعب اليهودي على خلفية معاناته المستمرة ودونيته العسكرية أمام أعدائه الذين يريدون قتله. ومن الزاوية اليهودية الإسرائيلية، المشاغبون العرب الذين حاربهم ترومبلدورهم الاستمرار الرمزي للفسطينيين والرومان والإغريق، الذين أرادوا إبادة الشعب اليهودي سواء من الناحية العضوية أو من الناحية الثقافية. وبنفس القدر، يشبه «غزو» اليهود لفلسطين في العالم العربي غزو الصليبيين. وكما كان الآن أيضًا، من المقرر أن ينتهي هذا الغزو بانتصار باهر للعرب على أعدائهم من الغرب.

مكان الأحداث ليس نقطة إشارية جغرافية لا معنى لها، وإنما هو «أسطورة مكان» مليئة بالدلالات التاريخية التي تجسد العلاقة الطويلة بأرض الوطن. والصراع على أسماء الأماكن في فلسطين، وعلى اسم فلسطين نفسه، يزيد من الصراع على

العلاقة بين المكان والصقور فيه وحوله، حينما يستعينون بالقصص القومية التي ارتبطت بهذا المكان.

تهدف القصص القومية إلى توحيد صفوف المجموع وغرس القيم المتجسدة في النص الأعلى. حشد التاريخ الذي يدرس في المدارس في دولة إسرائيل، القصص التي ترسخ هويتها من مصادر مختلفة، بدءًا من العهد القديم وأبطاله، مرورًا بأساطير الهيكل الثاني (يهودا المكابي وبر كوخفا واليعازر بن يائير) وعبر (الحوار متعدد المعنى حول 2000 سنة مهجر) وفترة ما قبل الدولة (على سبيل المثال ترومبلدور، وحناه سنش، ومردخاي انيلبيتس) وانتهاءً بأبطال الحروب الإسرائيلية العربية. تجسد هذه القصص القيم الأساسية للبطولة، والتضحية، والمخاطرة وحب الشعب والأرض، التي يصعب بدونها على الشعب أن يصمد في حرب الوجود أمام أعدائه.

لا تهدف الحكاية المتكررة للقصة، إلى بناء منظومة اعتقادات الشعب فقط، وإنما تهدف أساسًا إلى صهر المشاعر المحركة للعمل المطلوب للدفاع عن الشعب والوطن داخل هذه الاعتقادات: التقدير، التجاوب، التطلع إلى تقليد ودافعية قوية للانتماء للجماعة وتبني قيمها (أورن وبر طال:2004)، والقصة القومية المغلقة والمليئة بالمشاعر الوطنية هي «نموذج مثالي» بالمفهوم الفابرياني للمصطلح. وتوجد درجة التنسيق بين النموذج المثالي والواقع في حركة دائمة.

نجد واقعية، ومعنى النص الأعلى والنصوص القومية العليا وتأثيرها العملي، في الجدل الدائم بين القطاعات المختلفة في الجماعة. يوجد بصورة عامة داخل المعسكر المسمى «يمينيًا قوميًا» من يعتبرون القصص القومية حقائق تاريخية صلبة من الواجب شحذها وقصها للشباب من أجل زيادة الإيمان بصدق الطريق - وبالتأكيد أمام من يبدو لهم عدوًا يهدد وجودهم ذاته. من ناحية أخرى، يوجد بين النخبة الأكاديمية والأدبية، بصورة عامة، من يتبنون دعوة «أكثر هدوءًا» - أو حتى عكسية - للقصص الذاتية، مع صرف الانتباه إلى قصص الجانب الثاني. والتطرق

إلى القصص التوراتية والتاريخية باعتبارها أساطير جديرة بالدراسة والبحث. وتشير (أوحاناه وويستريخ: 1996)، إلى إمكانية التشكك في حقيقة القصص القومية المطلقة وتبدأ في مناقشة الموضوع. وأمام من يسعون وراء الأسس التاريخية للنص الأعلى اليهودي (جرينبرج: 2000 ؛ زند : 2008)، يقف ممثلو الأرثوذكسية الصهيونية (إيزنشتات: 2009 ؛Shapira2004) وما زال النقاش مستمرًا.

ومع ذلك، فإن الجدل الأكاديمي حول الأساطير والقصص القومية، لا يصل إلى كل طبقات الشعب. فكلما ظل الشعب يواصل الحكي لنفسه نثرًا وشعرًا ودراما، القصص القومية التي تدعم النص الأعلى القومي، كلما تفوق هذا النص على كل رافضيه. وأيضًا إذا كان هناك مزاعم بأن «ما إذا قال في الحقيقة ترومبلدور» قد حفرت شرخًا دقيقًا في قشرة القصة الموازية، إلا أنها لا تملك نشر النواة التي استوعبت في الوعي من خلال 30 قصيدة وأكثر (طوهر ليف وناءور: 2003 ص 74) اللذين وصفا البطل الجليلي وجعلاه الممثل النهائي للأخلاق الصهيونية.

تخضع القصص لتأثيرات «روح الفترة» حيث أن الحداثة تبعد مكان الذاكرة بصورة عامة والذاكرة القومية بصورة خاصة، لصالح التخيل، والإبداع، والوعي والنقد. ويعتبر الشحذ الأرثوذكسي لقصص الماضي، متقادمًا ورجعيًا. فالحداثة وما بعد الحداثة يلتقيان في منطقة الشك المطلوب لزعزعة المصداقية الحالية والسعي خلفها، سواء لإيجاد حقيقة جديدة (حداثة) أو لإظهار أنه لا توجد حقيقة مطلقة (ما بعد الحداثة). وكلما تقدمت المجتمعات في المحور بين الحداثة وما بعد الحداثة، كلما قل استعدادها لتكريس قصص الماضي وزاد شكها في مصداقيتها. وبالتالي كلما زاد التزامن في مسيرة الشعبين في صراع الهويات نحو ما بعد الحداثة، كلما زادت احتمالات تقاربهم من خلال معرفة قصص غيرهم والاستعداد لاستيعابها ووضعها إلى جانب القصص الذاتية أو في داخلها. في مقابل ذلك، إذا أبدى أحدهم شكًا ونقدًا تجاه أساطيره هو نفسه واستعدادًا للاعتراف

بقصص خصمه، بينما لايزال الطرف الثاني يتمسك بالأساطير القومية الخاصة به ويلجأ لها لكي يبني هويته من خلال الرفض المطلق لقصص خصمه، فإنه في هذه الحالة يقلل من احتمالات التقارب بينهما على أساس الإنهاء المتبادل للقصص.

كما أن العولمة، التي ترجع في الأساس إلى تبادل السلع المادية والرمزية بين المجتمعات والشعوب في كل الأرض، يمكن أن تساهم في تليين ومرونة حدود القصص القومية. فليس كما كان في الماضي لا يوجد الآن مشكلة معرفة زمن الحقيقة. فكل طرف في الصراع يمكنه أن يعرف ما هي القصص لدى الثاني بالنسبة لكل حدث في الصراع. وأكثر من ذلك، من خلال المعرفة المتراكمة، يمكن للأطراف التجادل حول مدى تشابه قصصها في البنية، حتى وإن كانت متعارضة في المضمون، وإلى أي مدى يقص كل طرف لنفسه صدقه هو واتهام الطرف الثاني.

ويمكن أن تولد المعرفة فهمًا وتقمصًا عاطفيًا وتقلل بذلك من جدار الإثنية والكراهية التي يتحصن وراءها كل طرف. ومع ذلك يوجد في العولمة خطر تشويه الصورة المتفردة لكل مجتمع وكل ثقافة. أيضًا تخشى الشعوب التي تعتمد هويتها القومية ـ الثقافية على أرض صلبة، من أن تستوعب داخل العولمة، التي يعتبرها الكثيرون «أمركة» ويحاولون مواجهتها من خلال العودة إلى الجذور. في فرنسا، على سبيل المثال، ينص القانون على أن يكون 60% من برامج التلفاز إنتاجًا محليًا (تسوكرمان: 19999 ص 85).

إذا كان هذا هو الواقع في دول غرب أوربا ـ التي تبلورت هويتها القومية منذ مئات السنين والتي قد تكون سمحت لنفسها برفاهية عولمة ما بعد القومية ـ فما بالك بتعزز الخوف من التشبه الثقافي بين الشعوب الإسلامية، التي تحاول أن تحيي بهاء الماضي الضائع منذ القرن التاسع عشر (Antonius, 1938; لويس:, 2004, 2006) يبدو أنه كلما كان المجموع مهتمًا ببناء هويته القومية وفي حاجة إلى بلورتها

وتعزيزها، كلما زاد إيمانه بصدق وسلامة قصصه القومية. وكذلك، كلما زاد التمسك بالمصداقية الفريدة للقصص القومية، كلما تعاظمت مركزيتها كموانع في تسوية خلاف الهويات بين الشعوب المتشددة.

في صراع الهويات يوجد على الأقل طرف يطور قصصه القومية ولا يتيح المجال لأي احتجاج على صحتها ومصداقيتها. تستخدم هذه القصص في إنتاج الأخلاقيات القومية وفي تثقيف الجيل الشاب على الاستعداد للقتال بل وحتى التضحية بحياته من أجل الوطن. في الصراع الإسرائيلي الفلسطيني، الذي يعد صراع هويات مضاعفًا (حيث ينكر الجانبان هوية الخصم القومية)، لا يوجد تناسق بين مراحل بناء هوية الأطراف. يوجد الفلسطينيون في مرحلة مبكرة من بناء هويتهم وهم في حاجة شديدة لقصص قومية قوية وموحدة لتحصين نصهم الأعلى؛ لكن الطرف اليهودي لم يتعامل مع هويته إلى النهاية، التي تتهددها كثير من التصدعات. وعدم وجود تناسق في ميزان القوة بين الشعبين يزيد من حدة الاحتياج إلى القصص القومية كمورد يعوض كل طرف من الأطراف عن ضعفه أمام الثاني. الإحساس الفلسطيني بالدونية كشعب محتل (في المناطق التي احتلت عام 1967) أو كمواطنين من الدرجة الثانية (في دولة إسرائيل) يدفعهم إلى البحث عن تعويض من خلال تغذية القصص عن بطولة الماضي في مقابل التضحيات الحالية. وأيضًا في الجانب اليهودي الإسرائيلي - في وضعه المزدوج سواء بالاحتلال أو كعرضة للتهديد من العالم العربي والإسلامي، حيث يعتبر الفلسطينيون أنفسهم جزءًا منه - يريد علة في قصص الماضي الذي يرتبط فيه فخر الماضي والتضحيات معًا لدرجة لا يمكن فصلها.

وبالتالي يبدو أن صراع الهويات يدور في دائرة سحرية مغلقة: تعد القصص الأعلى للطرفين أخلاقيات مبلورة على علاقة تناقض خطير ويزداد خطورة كلما تراكمت المزيد من القصص التي تجسد، وتفاقم وتدفق دمًا جديدًا (ثلاثية المعنى) إلى النص الأعلى. ومع ذلك، فهناك صراعات مستمرة وعنيفة تمت تسويتها بين الأطراف بصورة

أو بأخرى، بصورة عامة بسبب مصالح سياسية وبخاصة مصالح اقتصادية، لكن من خلال إدراك أنه لا يمكن إحراز تقدم في العملية دون التطرق للوعي القومي والذاكرة الجمعية أو للقصص. والآلية الرئيسية لدفع هذا الاتجاه هي استيعاب القصص من خلال كتابة تاريخ مشترك.

استيعاب القصص كوسيلة لتسوية الخلافات

استيعاب قصص الآخر هي عملية معقدة تتطلب التعرف على الآخر، والاعتراف بشرعيته - أي بحق الطرف الثاني في أن يقص قصته من زاوية أخرى - وفي النهاية يتم دمج قصة الآخر في القصة القومية أو إلى جانبها - وبخاصة من خلال قصص التاريخ المشترك (Dwyer: 1999; Bar-Tal,: 2007). على سبيل المثال قام الصينيون واليابانيون بعملية كهذه بالنسبة لـ «مذبحة نينكينج» التي كانت حجر عثرة في سبيل التقارب بين الدولتين اللتين تطلعتا لأسباب اقتصادية وسياسية إلى توطيد العلاقات بينهما. لقد توقعت الصين أن تعترف اليابان بمسئوليتها عن المذبحة التي راح ضحيتها حوالي 400 ألف صيني بينما رفضت اليابان القيام بذلك لمدة طويلة.

في عام 1972 - وبعد سنوات من الصمت، ظهر في اليابان جدل جماهيري عن الحرب اليابانية، بعد أن نشرت جريدة أشاي شيمبون (Asahi Shimbun) سلسلة مقالات عن الجرائم التي ارتكبت ضد الصينيين، بما فيها «مذبحة نينكينج». وعادت المذبحة من جديد إلى العناوين الرئيسية في اليابان في 1982 - بعد أن ألغت وزارة التعليم اليابانية أي ذكر لها من القصص الدراسية في المدارس الثانوية، بدعوى أنه لا يوجد إثبات تاريخي كافٍ لوجودها، (Wikipedia Nanking Massacre).

على الرغم من أن العلاقات السياسية والاقتصادية بين الدولتين قد تحسنت جدًا منذ إقامة علاقات ديبلوماسية بينهما في 1972 - إلا أن الرأي العام في الصين تحرك في الاتجاه العكسي.

واندلعت مظاهرات عنيفة معادية لليابان بين الحين والآخر. قال 93% من عينة البحث في استطلاعات الرأي الصينية أن موقف اليابان بالنسبة لماضيها - أي إنكار مظالمها - هو العائق الرئيسي في سبيل تطور العلاقات الصينية اليابانية وأن التداعي الأول الذي يظهر في عقولهم حال سماع اسم اليابان هو «مذبحة نينكينج» (Qiu,: 2006, 41).

وأدركت حكومتا الصين واليابان أنه لا يوجد بينهما ما يكفي من التعاون السياسي والاقتصادي لاقتلاع هذا العداء المتبادل، وأن تسوية الخلاف تتطلب منهما التعامل مع التاريخ وبخاصة مع تاريخ الصراع الذي يقصه كل طرف لنفسه. اجتمع تاريخيون من كلا الجانبين بتعليمات من حكومتيهما لكي يبحثوا هذا التاريخ وركزوا على مكونات القصص المتبلورة، وبخاصة عن أحداث نينكينج. وفي النهاية نشرت صيغة جديدة للقصة، تعرض لكل طرف قصته وأيضًا قصة الطرف الثاني. (Chinese, Japanese 2007).

هناك خطوة متقدمة في اتجاه تسوية الخلاف من خلال تعليم القصص واستيعابها، قامت بها ألمانيا وفرنسا، اللتان عرضتا في أبريل 2008 في المدارس الثانوية قصصًا لتعليم التاريخ باسم: أوربا والعالم من مؤتمر فيينا وحتى عام 1945؛ وهو كتاب التاريخ الثاني الذي كتبه مؤرخون ألمان وفرنسيون بالاشتراك (الأول عرض فترة ما بعد 1945). وترجع أهميته إلى أنه يتناول الصراع العميق المتواصل على مدار ثلاثة حروب دموية، حصدت عددًا ضخمًا من الضحايا من كلا الشعبين. واتضح - ربما مفاجأة - أن نقاط الخلاف في عملية كتابة الكتاب لم تكن كثيرة (رولو: 14.4.08).

اعتبرت المبادرة الفرنسية - الألمانية نموذجًا يحتذى لدى حكومتي بولندا وألمانيا، اللتين أعلنتا في يونيو 2008 عن قرارهما بأن يضعا معًا كتب التاريخ لتلاميذ المدارس الثانوية كخطوة لتحسين العلاقات بين العدوين التاريخيين. والتحدي الذي واجه الدولتين هو تحدٍ أصعب بكثير لأن ثغرات العداء بين بولندا

وألمانيا ما زالت عميقة. لقد احتل الجيش الألماني بولندا ببربرية، وليس مثل فرنسا فقد قسمت وفقدت استقلالها وذاتيتها. لقد أصبح مواطنوها أقنان وطرد الكثيرون منهم. وبدأت بولندا في إعادة صياغة هويتها القومية المستقلة بعد سقوط الاتحاد السوفييتي عام 1989 ـ وهناك عنصر هام في بناء الهوية البولندية المجددة وهو الحنين إلى الذاكرة الجمعية، التي تحتل فيها العلاقات مع ألمانيا مكانًا هامًا وسلبيًا. وأحد الأدلة على الصعوبات هو التوتر الكبير بين الدولتين حول اقتراح ألماني بإنشاء نصب تذكاري للألمان الذين طردوا من أوربا ـ بما في ذلك من بولندا ـ بعد الحرب العالمية الثانية. وأضير البولنديون من محاولة مساواة المعاناة التي أحدثوها للألمان، بالمعاناة التي تسبب الألمان فيها لهم. وبمعنى آخر: ليس لدى البولنديين استعداد للتنازل عن ذكرى التضحيات التي تعد مكونًا رئيسيًا في بناء الأخلاقيات القومية للشعوب التي يمتلئ تاريخها بأمجاد مختارة chosen glories بل وأكثر بصدمات مختارة (Volkan: 2004 chosen traumas).

هناك نموذج آخر على أهمية القصص القومية ـ سواء كموانع أو متيحات لتسوية خلاف الهوية ـ وهو الاتفاق الذي وقعت عليه أرمينيا وتركيا في زيوريخ في 11 أكتوبر 2009 لإقامة علاقات ديبلوماسية وفتح الحدود بينهما. وما من شك في أن مصالح اقتصادية (وبخاصة من جانب أرمينيا) وسياسية (رغبة تركيا في الاشتراك في الاتحاد الأوربي وتعزيز وضعها كقوة عظمى إقليمية) دفعت الدولتين إلى تسوية الخلاف الذي فرق بينهما قرابة مئة عام، لكن الدولتاين أدركتا أن التسوية الكاملة للصراع لا يمكن أن تتحقق بدون التطرق إلى الذاكرة التاريخية. وتتوسط هذه الذاكرة القصص المتناقضة من كلا الطرفين عن ما تعتبره إرمينيا إبادة جماعية ـ قتل مخطط من جانب الأتراك لمليون وحتى مليون ونصف أرميني ـ بينما تعتبره تركيا عملية قتال شرعية في الحرب العالمية الأولى. وصحيح أن هناك مواجهات سياسية وإقليمية (الحرب على إقليم نجورنو كابلان بين أرمينيا وأذربيجان، حليف

تركيا)، استخدمت كذريعة رئيسية لإغلاق الحدود بين الدولتين وخلقت بينهما توترًا، لكن الحرب المريرة حول «الحقيقة» التاريخية بالنسبة لأحداث 1915 كانت حجر عثرة رئيسيًا في ترتيب العلاقات بينهما.

ونظرًا لضعفها النسبي، اضطرت أرمينيا إلى التخلي عن مطالبتها تركيا بالاعتراف بالإبادة الجماعية وتحمل مسئوليتها، لكن تركيا اضطرت إلى الموافقة على تشكيل لجنة دولية من المؤرخين لدراسة هذه الحالة. ولن تبحث هنا القصص عن الهوية ولا الحقوق على الأرض لكل طرف من الأطراف، وإنما ستدرس قصص كل طرف عن هذه الحالة الدقيقة التي اختلفت الآراء بشأنها في مراحل الصراع. وترتبط التسوية النهائية للصراع الأرمني التركي بدرجة كبيرة بتشكيل لجنة مؤرخين، تعد استجابة كافية لمطلبهم باستيضاح «الحقيقة».

تجسد هذه النماذج مركزية القصص القومية كموانع لتسوية خلافات الهويات، لكنها تجسد أيضًا احتمال اختراق هذه الموانع من خلال اعتراف الأطراف بأهمية التعامل مع القصص القومية المتناقضة، ومحاولتهم استيعاب قصص الطرف الثاني القومية داخل القصص الموجودة عنده.

من المهم أن نفهم أن الأطراف توصلت في كل النماذج المذكورة إلى إحراز تقدم ملموس في حل الصراع بينهما حتى قبل أن يصلوا إلى استيعاب القصص المتعارضة. وفي المقابل نجد الصراع الإسرائيلي الفلسطيني ما زال بعيدًا جدًا عن الحل أو التسوية. فهناك كثير من الموضوعات الجوهرية ما زالت موجودة بين أطراف هذا الصراع، مثل الإحساس بالتهديد الوجودي الذي يشعل الرياح بين الصقور وبينهم وبين أنفسهم. ويبدو أن احتمال الانضمام إلى دائرة الدول التي تسوي خلافاتها من خلال استيعاب القصص هو احتمال ضعيف. ونعرض فيما يلي الصعوبات التي تواجه استيعاب الصراع الإسرائيلي الفلسطيني ونوضح الفارق بين النصوص العليا والنصوص القومية في الصراع الإسرائيلي الفلسطيني.

النصوص والنصوص العليا في الصراع الإسرائيلي (اليهودي) الفلسطيني

يؤكد باحثو الصورة النصوصية الواعية للصراع الإسرائيلي الفلسطيني على الفجوات العميقة بين القصص لدى الطرفين وتوصلوا إلى نتيجة أن هذه الفجوات لا يمكن رأب الصدع فيها، انظر على سبيل المثال المقالات الواردة في (Rotberg, 2006; Scham, Salem & Pogrund : 2005).

يبدو أن هذه النتيجة القاطعة نابعة من تضييع معالم التفرقة بين النصوص العليا والنصوص. فنجد سالم وسام وفوجروند يضعون ما يسمونه «القصص الإسرائيلية التقليدية» أمام «القصص الفلسطينية التقليدية»، مع خلطهم الروايات الأساسية للطرفين بالنسبة لمسائل أساسية في الهوية والعلاقة، مع صياغات الأطراف بالنسبة لأحداث تاريخية حدثت خلال الصراع (Scham, Salem & Pogrund)

وكذلك فإن دان بر أون يدرس إمكانية التوفيق بين الروايات الفلسطينية والإسرائيلية ويقول أن هذا أمر غير ممكن (Bar-On 2006: 143). وفي المقابل نجد مردخاي بر أون وسامي عدوان متفائلين أكثر. فالتوقعات الحذرة بالنسبة لاحتمالات التوفيق بين الروايات، تعتمد على خبرتهم في عقد لقاءات بين معلمين فلسطينيين ويهود - إسرائيليين طلب منهم أن يعرضوا على تلاميذهم الروايات القومية للطرفين (Bar-On & Adwan: 2006). بل ويتأكد أن الباحثين لم يفرقا بين الروايات القومية والنصوص العليا، وركزا على الروايات - أي على القصص حول الأحداث القاسية في تاريخ الصراع - وتجاهلا النصوص العليا. وبالفعل، حينما نضع الروايات القومية للطرفين هذه في مواجهة تلك بالنسبة لأحداث رئيسية في الصراع، نجد أن التعارضات شديدة. لكن ثقل هذه الروايات في الأخلاقيات لدى الطرفين يمكن أن يكون قليلًا نسبيًا بالنسبة لثقل النصوص العليا، ومن هنا يأتي أيضًا الاختلاف في صعوبة التعامل مع هذين النوعين من القصص، والاختلاف في درجة إصرار

الطرفان على التمسك بها. النصوص العليا هي «الأنا المؤمن» للطرفين وأساس وجودهما، وهويتهما والشرعية الداخلية والخارجية لمطالبهما. وحاجة الطرفين إلى التحصن في النصوص العليا وتغذية التضامن حولها هي حاجة كبيرة لدرجة أن احتمالات الموافقة على تغييرها تعد احتمالات ضعيفة إلى معدومة. وفي المقابل نجد أن النصوص القومية، مع كل أهميتها في بناء الأخلاقيات القومية، أكثر مرونة ويمكن تقريب مواقف الأطراف بالنسبة لأبعاد معينة فيها (الأبعاد المتعلقة بالمكونات الخمسة التي ذكرناها). وسأعرض فيما يلي أسس النصوص العليا لدى طرفي الصراع الإسرائيلي ـ الفلسطيني.

حصل النص الأعلى الفلسطيني على صياغته الشكلية الأولى في صيغة الميثاق الوطني الفلسطيني (هركافي:1971)، الذي يعطي إجابات واضحة للمشاكل الرئيسية التي تشكل النص الأعلى للوجود الجمعي الذي يناضل من أجل تعريفه حقوقه أمام خصم يرفضها. ويحظى السؤال: من نحن ومن هم؟ بإجابة واضحة: الفلسطينيون شعب يعيش في فلسطين منذ أجيال طويلة، بينما اليهود هم مجموعة دينية وليست قومية، ذراعها التنفيذي هي الحركة الصهيونية. والصهيونية هي حركة عنصرية ـ متعصبة في جوهرها، عدوانية، توسعية ـ استيطانية في أهدافها وفاشستية ـ نازية في وسائلها. وإسرائيل هي أداة الحركة الصهيونية وقاعدة الإمبريالية العالمية.

أيضًا لا لبس في مشكلة العلاقة بمنطقة واضحة: الفلسطينيون فقط لهم الحق في الوطن فلسطين، ومن هنا يأتي حق العودة لكل الفلسطينيين الذين طردوا من الوطن هم ونسلهم. ويسمح اليهود للذين أقاموا في فلسطين بصورة دائمة حتى 1947 بالإقامة فيها كمواطنين فلسطينيين دون أي حقوق قومية.

القرارات الدولية التي تعترف بالحق اليهودي في الوطن فلسطين (إعلان بلفور، وثيقة الانتداب، قرار التقسيم) وأيضًا سلوك الحركة الصهيونية ودولة إسرائيل تجاه

الفلسطينيين في المناطق المحتلة، بما في ذلك الأراضي الإسرائيلية في حدود 1967، جعلت الفلسطينيين ضحية عدوان على منطقة تخصهم، ولذلك فإن من حقهم القتال ضد منفذي الظلم. والصراع المسلح لتحرير فلسطين، النابع من هذه الحقوق ويهدف إلى صد الغزو الصهيوني والإمبريالي عن الوطن العربي، هو واجب قومي عربي.

في 15 نوفمبر 1988 نشر المجلس الوطني الفلسطيني «إعلان الاستقلال الفلسطيني». صاغ هذا الإعلان الشاعر الفلسطيني محمود درويش وهو يقدم إجابة للأسئلة الثلاثة الأساسية للنص الأعلى التي قدمها الميثاق الفلسطيني (من نحن ومن هم؟ ما هي علاقتنا وعلاقتهم بالأراضي محل الخلاف بيننا وبينهم ومن هو الضحية في هذا الصراع. ويؤكد أيضًا على كون الفلسطينيين ضحايا. وليس كما جاء في الميثاق، ينظر هذا الإعلان بإيجاب إلى قرار التقسيم عام 1947 كما أنه يسلب من الفلسطينيين حقهم في مجمل أراضي فلسطين، ولو فقط لأنه يضفي الشرعية الدولية على المطلب الفلسطيني بأن يقيموا لأنفسهم دولة ذات سيادة في فلسطين. يترتب الاعتراف بدولة إسرائيل على الاعتراف بقرار التقسيم، لكنه لم يرد تفصيلًا. وصحيح أن الإعلان لا يدعو تفصيلا إلى محاربة الكيان الصهيوني، لكنه يعرب عن تقديره لمنظمة التحرير الفلسطينية لإدارتها لصراع الشعب الفلسطيني العادل ضد من يسلبون حقوقه ويذبحونه (Text of the Declaration 1988 Palestinian Declaration of Independence - Algiers). ولا يهدف الإعلان إلى أن يحل محل الميثاق لكنه لا يلغي بنوده الرئيسية.

طلب من الفلسطينيين في اتفاقات أوسلو إلغاء بنود الميثاق التي تتناقض مع اتفاقات أوسلو وبخاصة البند الرئيسي، الذي يرفض الاعتراف بالقومية الإسرائيلية وينص على أن للفلسطينيين الحق القومي الوحيد في فلسطين. ولا يعنينا في هذا المقال السؤال هل نفذ الفلسطينيون وعدهم وفعلوا ذلك أم لا. وعلى أية حال، منذ

ذلك الوقت وحتى الآن لم تصغ وثيقة بديلة تعرض بصورة واضحة، داخليًا وخارجيًا، أسس النص الأعلى الفلسطيني.

جاءت مبادرة إعادة رسم الخطوط الأساسية للنص الأعلى الفلسطيني تحديدًا من جانب الفلسطينيين مواطني إسرائيل، الذين صاغوا ما يعرف باسم «وثائق الرؤية المستقبلية» (التفاصيل فيما بعد). تعد هذه الوثائق بمثابة تحدٍ للفلسطينيين في إسرائيل أمام السلطة الفلسطينية على تجاهلهم منذ اتفاقات أوسلو وتخليها عن التزامها بدفع الحقوق الوطنية للفلسطينيين أينما كانوا. وبصورة متناقضة تعكس هذه المبادرة إحباط الفلسطينيين مواطني إسرائيل وخيبة أملهم فيما يعتبرونه سياسة الإقصاء والاغتراب من جانب سلطات الدولة تجاه الجمهور العربي، أو الثقة الزائدة في وضعهم كمجموع ذي صلاحيات، ومطالب وبخاصة إمكانية إسماع صوتهم عاليًا بالنسبة للمسائل الأساسية للهوية الفلسطينية التي لا تتعلق فقط بالفلسطينيين الذين يعيشون في إسرائيل، وإنما تتعلق أيضًا بكل أفراد الشعب الفلسطيني أينما كانوا. وبخلاف كونهم أساس المفاوضات مع السلطات الإسرائيلية عن الحقوق الخاصة والجمعية لمواطنيها الفلسطينيين، تعد وثائق «الرؤية» مانفيستو فكري وأيديولوجي واضح لا يمكن لأي مبادرة لتسوية الخلاف الإسرائيلي الفلسطيني أن تتجاهله، ومن هنا تأتي أهميتها كمانع في تسوية الخلاف. هل تتضمن «وثائق» الرؤية دستورًا متساويًا للجميع؟.هذا الدستور الذي كتبه الدكتور يوسف جفرين ونشره مركز مساواه في نوفمبر 2006؛ ويعد بمثابة الرؤية المستقبلية لعرب فلسطين في إسرائيل «التي نشرتها اللجنة الإقليمية لرؤساء الهيئات المحلية العربية في ديسمبر 2006؛ واقتراح «للدستور الديموقراطي» الذي نشره مركز البحوث الاجتماعية التطبيقية في حيفا ـ في 15 مايو 2007 ـ هو الآن الذي يشيرون إليه في كل أنحاء العالم العربي بيوم النكبة ـ تمت صياغته عن عمد على صورة ميثاق استقلال إسرائيل.

وردًا على سؤال الهوية، تنص وثائق «الرؤية» على أن الفلسطينيين هم المواطنون الأصليون ـ أقلية وطن (إعلان حيفا 11 : 2007) في المكان الذي يطالب اليهود الإسرائيليون بملكيته. وبعرض هذا الزعم يعمد أصحاب هذه «الرؤية» إلى شحذ بُعد الهوية في الصراع الإسرائيلي الفلسطيني.

وفي مقابل ذلك، لا يعترف اليهود في دولة إسرائيل بهذه الوثائق كجزء من شعب له تاريخ قومي وهوية منفصلة وصلبة. في «إعلان حيفا»، وليس كما في وثيقة الرؤية، يوجد بالفعل ذكر « لشعب يهودي» (إعلان حيفا 11 : 2007)، لكن دون أي علاقة تاريخية أو أي بعد للتواصل. الدولة اليهودية هي « نتاج عملية استعمارية قامت بها النخبة اليهودية الصهيونية في أوربا وفي الغرب (التي) قامت بمساعدة الدول الاستعمارية وتقوت في ظل تعاظم الهجرة اليهودية إلى فلسطين نتيجة للحرب العالمية الثانية وأحداث النازي (الرؤية 9 : 2006).

وبالنسبة لمشكلة العلاقة بالأرض، فإن الوثائق الأساسية على اختلافها تنص بصورة قاطعة على أن فلسطين هي الوطن التاريخي والوحيد للشعب الفلسطيني ويرفضون أي علاقة تاريخية معتمدة للشعب اليهودي في هذا الإقليم. وعلاقة اليهود بالمكان هي علاقة بحكم الاحتلال والاستعمار. وأي عملية استيطانية يقوم بها اليهود في فلسطين «ليست سوى» تهويد للمنطقة الجغرافية (الفلسطينية) ومحو الماضي والثقافة الفلسطينية (الرؤية : 16 : 2006).

ينص إعلان حيفا على أن الفلسطينيين هم الضحايا النهائيون للصراع ولدولة إسرائيل، التي «طبقت سياسة القمع والاضطهاد الذي يتجاوز ما مارسه نظام التفرقة العنصرية في جنوب إفريقيا» (إعلان حيفا 10 ـ 2007)، والحادث «الضحية» الجاهز هو «النكبة»،التي قتل خلالها كثير من أفراد الشعب الفلسطيني؛ واقتلع أغلبهم من وطنهم والباقي ظلوا أقلية يتمتعون بالمواطنة «التي لا يوجد لها أسس واقعية للمواطنة» (إعلان حيفا 11 : 2007).

تذكر الأعمال التي يقوم بها الفلسطينيون ضد اليهود تحت عنوان أحجار الطريق، الموجودة على طول طريقنا الجمعي، الذي ساعد في تعزيز «هويتنا»، وهي مصدر «الفخر» و«التقدير» (إعلان حيفا 7: 2007)، والنكبة هي «حادث مأساوي... يتعلق بالإنسانية برمتها»، وهو يمنح اليهود صفة الضحية ويبرئهم من التعاطف (نحن نتجاوب مع مضاري النكبة)، لكن دورها الرئيسي في نظر الكتاب هو :... استغلال... إضفاء الشرعية على حق اليهود في إقامة دولتهم على حساب الشعب الفلسطيني (إعلان حيفا 12 : 2007).

والتطرق للمشاكل الرئيسية الثلاث ـ الهوية والعلاقة بالأرض والضحية ـ يجتمع في النص الأعلى بقوة وتآلف يتعارض كلية مع النص الأعلى اليهودي الإسرائيلي، كما عبر عنه في ميثاق الاستقلال.

تحيك الكلمات الأولى في ميثاق الاستقلال إجابات أهم سؤالين في النص الأعلى: من نحن وما هي علاقتنا بأرض اشتياقنا؟: «في فلسطين قام الشعب اليهودي، وبها تشكلت شخصيته الروحية، والدينية والسياسية، وبها عاش حياة استقلال رسمية، بها أوجد ثروات ثقافة قومية».... تتضمن الجملة الافتتاحية ثلاثة أقوال مختلفة للطابع القومي للشعب الإسرائيلي: «شعب»، «رسمية»، «قومية». هذه إجابات خارج كل من تشكك أو سوف يتشكك في مصداقية وفعالية الصيغة اليهودية للسؤال: «من نحن». تتعزز العلاقة بين فلسطين وشعب إسرائيل بالجمل التالية : «بعد أن أجلي الشعب عن أرضه بالقوة حافظ على ولائه لها في كل دول شتاته، ولم يكف عن الصلاة والأمل في العودة إلى أرضه واستئناف حريته السياسية فيها. وانطلاقًا من هذه العلاقة التاريخية والتقليدية سعى اليهود عبر الأجيال إلى العودة والاحتفاظ بوطنهم القديم؛ وفي الأجيال الأخيرة عادت جموعهم إلى بلادهم.. تنتعش هذه العلاقة التاريخية بين الشعب وأرضه من خلال الاعتراف بالوثائق الدولية مثل إعلان بلفور، والانتداب الذي أعطته عصبة الأمم وقرار الأمم المتحدة عام 1947 ـ (ميثاق الاستقلال 1948).

ويعرض موتيف الضحايا كإثبات لضرورة العثور على حل قومي على الأرض للشعب اليهودي في أرضه ـ فلسطين: أحداث النازي التي حلت على شعب إسرائيل في الفترة الأخيرة، التي حسم فيها مذبحة ملايين من اليهود في أوربا، أثبتت من جديد بوضوح حتمية حل مشكلة الشعب اليهودي. استغل الناجون من أحداث النازي التهديد في أوربا ولم يكف يهود الدول الأخرى عن الهجرة إلى فلسطين... ولم يكفوا عن المطالبة بإقامة الدولة في فلسطين. ومع ذلك ووفقًا لهذه الوثيقة لا تعد أحداث النازي هي السبب في إقامة الدولة في فلسطين. هي «إعادة إثبات» لضرورة الحل الإقليمي للشعب القديم الذي أجلي عن أرضه. وبهذا عززت أحداث النازي ـ لكنها لم تحفز ـ مطالب شعب إسرائيل المتكررة، التي لم يتم التخلي عنها عبر التاريخ، باستعادة سيادة على أرضه.

تجنب الذين صاغوا الميثاق إلقاء التهمة على العرب أو على الفلسطينيين واكتفوا بالتلميح: «نحن ندعو ـ حتى خلال الهجوم الدموي ضدنا منذ سنوات ـ أبناء الشعب العربي مواطني فلسطين بالحفاظ على السلام ولعب دورهم في بناء الدولة على أساس المواطنة الكاملة والمتساوية وعلى أساس التمثيل المناسب في كل مؤسساتها، المؤقتة والدائمة». مواطنو إسرائيل العرب لا يحصلون بالفعل على اعتراف قومي مستقل ولا يدعون فلسطينيين، لكن لم يسحب منهم الانتماء القومي «للشعب العربي»الذي يضمن لهم المواطنة الكاملة والمساواة في دولة الشعب اليهودي.

ولا يعنينا في هذا المقال مسألة مدى التزام دولة إسرائيل بالتزاماتها التي التزمت بها في ميثاق الاستقلال. اهتمامنا هنا هو وضع الميثاقين الأساسيين للشعبين هذا في مواجهة ذاك، حيث تدرج فيهما النصوص العليا لكل شعب منهما.

كما يمكن أن نرى، تتناقض الإجابات التي يقدمها ميثاق الاستقلال للأسئلة الرئيسية، مع ما تحدده الوثائق التي كتبها مواطنو إسرائيل الفلسطينيين. وتكمن أهمية هذه الوثائق الأساسية في أنها تبلورت عن عمد كنص أعلى للشعب الفلسطيني

بشتاته في العالم وفي إسرائيل، ردًا على النص الأعلى الصهيوني. الوثائق التي تمثل اتجاه «الانغلاق على الداخل» موجهة فعلًا في الأساس إلى المواطنين الفلسطينيين الإسرائيليين، بل إنها أثارت بينهم جدلًا بالغًا، وبخاصة في المسائل الاجتماعية المتعلقة بالمواطنين الفلسطينيين أنفسهم أو بالعلاقات بينهم وبين السلطات في إسرائيل (ريخس ورودينسكي: 2009، الفصل الثاني ص 33-34)، ومع ذلك هناك إجماع مطلق بين الفلسطينيين في إسرائيل وأولئك الذين يعيشون خارجها بشأن المبادئ التي يعبر عنها في وثائق الرؤية وتسمع أصدائها في كل المفاوضات حول تسوية محتملة للصراع.

هذه الوثائق الأساسية، التي تعكس بالتفصيل «الأنا المؤمن» للشعب الذي يعيش صراع هوية مع أبناء قومية أخرى، تكمن بصورة عامة في الثقافة التي تستوعب اعتقادات أساسية وفرضيات غير مفصلة بالنسبة «للأنا الجمعي»، هويته، دوافعه،أهدافه وطرق عمله، ومن بين ما تحدده حد إلحاق الضرر به ورد فعله على المعاناة والكوارث.

يعتبر الفلسطينيون أنفسهم جزءًا من الأمة العربية التي لها سماتها «ثقافة الخجل» (shame (based culture التي يوجهها إحساس بالغ بالدونية والمساس بالكرامة في المجال الشخصي والجمعي على حد سواء. ويعد تحقير الغرب للأمة العربية ـ من الاحتلال الصليبي، مرورًا بغزو نابليون لمصر وحتى اتفاق سايكس بيكو في 1916 ـ جزءًا من ذاكرة حية، مؤلمة ومخجلة، تحدث فيها تطلعات الانتقام تجاه إسرائيل، التي تعتبر في نظرها في نهاية المطاف عميلًا للغرب في المنطقة. (Fattah & Fierke : 2009).

تدخل وسائل الإعلام بصورة عامة وقناة الجزيرة بصورة خاصة، إلى كل البيوت الصور المحقرة من الساحات المختلفة. صور الجنود الإسرائيليين على أرض «فلسطين المحتلة» أو صور الجنود الأمريكيين وهم ينتهكون الإخوة العراقيين، مما يحيل

الذاكرة التاريخية إلى واقع «هنا والآن». وكذلك فإن الإحساس المستمر بالدونية والخيانة هو الأرض التي تنبت عليها القصص القومية مثل قصة محمد الدرة. هذه القصص تعزز النص الأعلى وتؤدي بهم إلى الكراهية والغضب الذي لا يمكن تجاوزه بتوضيح الحقائق أو بزعم منطقي.

التعارض بين النص الأعلى الفلسطيني العربي والنص الأعلى للشعب اليهودي هو تعارض كامل ويوجد توترًا بالغًا بين الشعبين. وتتغذى الفجوة بينهما أيضًا من الانتماء الثقافي للشعب اليهودي إلى العالم الغربي (اليهودي المسيحي) القائم على ثقافة الاتهام (guilt-based culture) حيث يواجه أبناء هذه الثقافة المعاناة والكارثة بصورة مختلفة عن أبناء ثقافة الاحترام. فأبناء ثقافة الاتهام يبحثون بسلوكياتهم وأفعالهم عن مصادر إخفاقاتهم، ويحاولون التعامل معها بالفحص والتحقيق الذاتي ويتوقعون أن يفعل الخصم مثلهم. وتساهم الفروق بين ثقافة الاحترام وثقافة الاتهام في إخفاقات الإعلام بين هاتين الثقافتين.

هناك أسس أخرى للنص الأعلى اليهودي تعمق من الهوة بين الشعبين، وهي الاختيار والعهد. يوجد في التقاليد واللاوعي الجمعي للشعب اليهودي خيط متواصل وهو إحساس الاختيار والإيمان بالعهد الخاص بين الشعب وربه. هو الشعب المختار ـ للشهرة والمعاناة. لقد قطع العهد مع الرب في أيام إبراهيم ووقع عليه إلى الأبد في جبل سيناء. كما أن الشعب تعذب في السبي، وبالمذابح وأحداث النازي، وما زال موعودًا بالخلاص في الأرض الموعودة (Smith,: 1999).

صحيح أن نظريات الهوية القومية المتطرفة، التي تؤكد أسس الاختيار والعهد، ليست إرثًا للتيارات الرئيسية بين المواطنين اليهود في إسرائيل، حيث يمكن أن نجدها في الأساس بين يهود متدينين ـ قوميين. ويدور جدل كبير وأحيانًا غرائزي بين حاملي الهويات المختلفة وأصحاب النظريات المتنوعة عن الأسئلة الرئيسية الثلاثة في النص الأعلى الإسرائيلي، يتركز هذا الجدل على خط التواصل المشدود بين

الطرف الديني القومي اليميني والطرف اليساري ما بعد القومي. وأيضًا في الجانب الفلسطيني يمكن أن تكتسي الهوية الجمعية بصور متنوعة تحظى بتأكيدات مختلفة وفقًا لسياقاتها السياسية والاجتماعية المتغيرة.

يضاف إلى ذلك: أن المظاهر المختلفة لثقافة الخجل وثقافة الاحترام تخضع لنقد داخلي بالوثائق ذاتها. ومع ذلك، فإن النص الأعلى للتحقير القومي العربي له ما يدعمه في طبقات عريضة في العالم العربي ومنهم الفلسطينيون. الإحساس بالدونية الوجودية الذي عبر عنه الفلسطينيون بقوة عدة مرات خلال 20 سنة (1948 ـ 1967) والذي أورثهم، وفقًا لنظريتهم، أكبر كوارثهم وبخاصة الأكثر تحقيرًا، يعد مانعًا عاليًا أمام تسوية الخلاف مع إسرائيل.

التعارض الكامل بين «النصين الأعليين» اليهودي والفلسطيني، والدور الرئيسي لهما في تحصين الهوية القومية لكلا الطرفين، لا يتيحان أي تسوية بينهما، وبالتأكيد في هذه المرحلة من الصراع، التي ما زالت تنزف بحدة. والافتراض هو أن محاولة الربط بين هذين النصين الأعليين يمكن أن تؤدي إلى تصعيد العداء. وبالفعل، فإن المحاولة التي تمت في «المعهد الإسرائيلي للديموقراطية» لعقد لقاء بين مثقفين يهود وفلسطينيين من كلا الطرفين، لصياغة ميثاق يزيد من الخطوط الأساسية المشتركة بين هاتين الطائفتين اعتمادًا على أسس النصوص العليا عندهم، انتهت بإحباط في الجانبين دون التوصل إلى اتفاق (بنزيمان: 2006)[50].

(٥٠) بين يناير 1999 ويناير 2001 اجتمع في المعهد الإسرائيلي للديموقراطية 20 رجلًا وامرأة، مثقفين يهود ومثقفين عرب من مواطني إسرائيل، في محاولة لصياغة ميثاق يعرف علاقات الأغلبية والأقلية في الدولة وعلاقاتهم المتبادلة. كانت هذه محاولة فريدة: حيث نفض المشاركون عنهم كل «القشور»وتحدثوا من قلوبهم عن هويتهم الذاتية، وعن تعريف قوميتهم وشراكتهم المدنية وعن توقعاتهم من محدثيهم. وواجه المشاركون المشاكل الأساسية المتعلقة بقدرتهم على الحياة معًا تحت تعريف «مواطني دولة إسرائيل».عقد 17 لقاء تناولت تعريف هوية الدولة، وطرق إيجاد قاسم مشترك لواقع العرب واليهود كمواطنين في الدولة، وعن إمكانية رأب الصدع في التوتر الداخلي في تعريف إسرائيل كدولة يهودية وديموقراطية. وبحثت المجموعة أيضًا مقترحات لتغييرات تشريعية تلبي توقعات الأقلية العربية في تحسين وضعها من ناحية واستعدادها لتطبيق واجبات المواطنة مثل الخدمة الوطنية من ناحية أخرى.

النتائج المحبطة ليست مفاجئة. فمن الممكن في حالات صراع الهويات أن يتمسك كل طرف بمواقفه ويزيدها تعنتًا أمام تمسكات الطرف الثاني. ويسري هذا بصفة خاصة على الفلسطينيين، الذين بدأ تطوير هويتهم الجمعية ـ القومية ودراسة معانيها السياسية متأخرًا نسبيًا ويوجد الآن في ذروة دفعته؛ ناهيك عن أنهم على عكس الجانب اليهودي لم ينجحوا بعد في تحقيق تطلعهم إلى دولة. وفي المقابل، الجماهير اليهودية الإسرائيلية، التي ما زالت تتعامل مع مشاكل هوية أمام شروخ كبيرة يعد الشرخ القومي واحدًا منها ـ أكثر نضجًا للتفاهم «ما بعد القومي» الذي يميل إلى إبداء تسامح مع النص الأعلى لدى «الآخر». لكن، كلما واجه الجمهور اليهودي النص الأعلى الفلسطيني ـ الذي يتشكك في مجرد شرعيته بينما يتواصل العنف ـ كلما زاد الإحساس بالتهديد ويترتب على ذلك أن يتشدد في مواقفه ويتمسك بنصه القومي الأعلى.

ومع ذلك فإنه يمكن أن نوجد إطارات للنقاش تتناول النصوص الدقيقة، التي تدور حول أحداث حاسمة وتبنى من الإجابات على الأسئلة الخمس التي ذكرناها في بداية هذا الفصل. ويجري من لديهم رغبة طيبة من كلا الطرفين هذه المحاولات من حين لآخر. هكذا على سبيل المثال بادر البروفيسور «دان بار أون» من قسم علوم السلوكيات في جامعة بئر سبع والبروفيسور سامي عدوان من جامعة بيت لحم بكتابة كتب دراسية للتلاميذ الإسرائيليين والفلسطينيين، يتعرف من خلالها أبناء الشعبين على القصص ذات الصلة والمتعارضة مع أحداث رئيسية في التاريخ المشترك،على سبيل المثال: «أحداث 2010 ـ 2011 (وفقًا للرواية اليهودية) في مقابل أحداث الانتفاضات الشعبية (وفقًا للرواية الفلسطينية 1920) أحداث 1929 (يهودية) في مقابل 1929 فلسطينية»؛ الثورة العربية الكبرى (فلسطينية) في مقابل أحداث 1936 ـ 1939 (يهودية)؛ «حرب الاستقلال» (يهودية) في مقابل النكبة 1948 (فلسطينية) وهلم جرًا بالنسبة لحروب 1973، 1967، 1956 ـ و 1982 الانتفاضة الأولى 1948 عام

1987 ـ اتفاقات أوسلو،حتى اندلاع الانتفاضة الثانية. اللقاءات بين أطقم المدرسين الذين حاولوا التعامل مع التناقضات بين الروايات المختلفة، لم تكن سهلة ومع ذلك توصلوا إلى خط الهدف. وفي مقابل ذلك رفضت مؤسسات الجانبين الكتب، خشية ألا يحسن فهم هذه الخطوة الطموحة لدى الجماهير العريضة وتحتج على شرعية النص الأعلى لدى كل طرف من الأطراف من جانب الطرف الثاني (قشتي: 2007).

وكما نفهم من النماذج التي أوردناها أعلاه (اليابان ـ الصين؛ ألمانيا ـ فرنسا؛ ألمانيا ـ بولندا؛ تركيا ـ أرمينيا)، فإن عملية تسوية الخلاف لا تبدأ في المجال الواعي والروائي. في كل الحالات المذكورة تطلب الأمر سنوات لإزالة التوتر، والتقارب بين الدول على أساس المصالح المشتركة والاتفاق ـ حتى بين النخبة وأيضًا بين صفوف العامة العريضة ـ التي آن الأوان لتطبيعها وتحقيق سلام حقيقي. وحينما نضجت هذه الظروف، شق الطريق إلى معالجة الروايات القومية لكلا الطرفين.

وبالطبع، لم تنضج بعد الظروف لتسوية الخلاف في الصراع الإسرائيلي-الفلسطيني. فالسمة الهامة للصراع، التي تفصل بينه وبين صراعات أخرى، هي طبيعته المعقدة ومتعددة الإطارات. فمن ناحية توجد دولة وفي الناحية الأخرى يوجد كيان وطني يعدم السيادة. يوجد الفلسطينيون في أجزاء «في مناطق محتلة»، تعريفها غير واضح. بينما في إسرائيل، وليس فيها فقط ـ يرمز هذا المفهوم إلى المناطق التي احتلتها إسرائيل في عام 1967 فإن مواقف الفلسطينيين الرسمية التي يعبر عنها في الوثائق البرلمانية التي ذكرت أعلاه (الميثاق الوطني عام 1964 ـ وإعلان الاستقلال عام 1988 ووثائق «الرؤية» عام 2006 ـ 2007 وفي تصريحات زعماء فلسطينيين في كل المفوضات مع إسرائيل)، تعتبر كل مناطق الانتداب البريطاني، بما فيها منطقة دولة إسرائيل قبل 1967 مناطق فلسطينية محتلة. وخارج الشرق الأوسط يوجد شتات فلسطيني كبير، يمنح عدد الجامعيين فيهم (مثل إدوارد سعيد، وهو فلسطيني وفقًا لتعريفه، ووليد الخالدي) دعمًا أيديولوجيًا للصراع ولا يسمحون بإضعافه.

يدرس أي مشروع تسوية يطرح في المحادثات بين ممثلين إسرائيليين وفلسطينيين، عبر المنشورات الكثيرة التي تصدرها الجماهير الفلسطينية بكافة أنماطها، وبالفعل أيضًا الدول العربية التي تتقاسم مع الفلسطينيين القومية العربية ولكل منها مصلحتها الخاصة التي يمكن أن تدفع أحيانًا إلى التسوية، لكن في كثير من الأحيان تزيد من تصعيدها. هذه المكونات تجعل من الصراع الإسرائيلي الفلسطيني أكثر صعوبة، وتتطلب تسويته إضافة ظروف دولية وإقليمية إلى التطورات الداخلية سواء بالبعد الواقعي أو ببعد الموقف المعرفي.

ومن ناحية أخرى، القرب الطبيعي بين الإسرائيليين والفلسطينيين الذين يقيمون في مناطق إسرائيل أو في مناطق ما بعد 1967 والدمج بين المواطنين المتناحرين ـ الذين يجعلون الصراع ملموسًا أكثر ويدفع ثمنه من أرواح الناس وماديًا بصورة باهظة في كلا الجانبين ـ يمكن أن يحفز الشعوب لتسوية الخلاف. وأحد السبل إلى ذلك ـ وليس الوحيد ولا الأول بالضرورة ـ هو التعرف على روايات الطرف الثاني في محاولة لإظهار نقاط التقاء بشأن من وماذا ولماذا ومتى وأين في الروايات القومية المتعلقة بالأحداث التاريخية التي وقعت أثناء الصراع.

التعرف على رواية الآخر يمكن أن يأتي «من أعلى» من قرار الحكومة ـ أو «من أسفل» ـ مثلًا كمبادرة مستقلة من الإعلام إلى قنواته المختلفة. وتجدر الإشارة إلى أن النقاش الذي تم في اليابان حول جرائم الحرب ضد الصينيين ـ بما فيه ـ مذبحة نينكينج ـ إثير بعد أن نشرت صحيفة يابانية كبيرة سلسلة مقالات حول هذا الموضوع. ولا يتيح النقاش في وسائل الإعلام الاجتماع للتسوية. أما مقالات التحقيقات فإنها ثاقبة وتتهم أحداثًا في التاريخ المشترك والدموي لدى الشعبين، يمكن أن تؤدي أيضًا إلى «سهم مرتد» يتمثل في التحصن من جديد بالرواية العليا القومية.

يعتبر الإعلام بصورة عامة مشعلًا للصراعات بسبب ميله إلى إبراز أبعاد «هامة» مثل الحرب وأعمال العنف وعدم إلقاء الضوء على معلومات جوهرية «عن التصالح

والتقارب بين الخصوم» Gilboa, :2000; Kempf & Luostarinen,: 2002; Shinar,: 2002 على عكس معايير القياس، والتجريد والدرامية التي توجه العمل الصحفي، فإن عملية السلام تحمل طابعًا استمراريًا، ومعقدًا ومتدرجًا، وبالتالي فإنه يوجد بينهما توتر داخلي (Wolfsfeld :2004; Wolfsfeld, Alimy & Kaliani :2008). وتساهم ظاهرة التعقيبات Talkbacks أيضًا في التصعيد، حيث تشجع التعبيرات الشعورية غير المنضبطة (كاهان ونياجر:2007)، بصورة عامة من الجانب القومي للخريطة السياسية. إضافة إلى ذلك، يمكن لوسائل الإعلام أن تلعب دورًا إيجابيًا في تليين الموقف العدائي، وذلك من خلال عرض رواية «الآخر» والاعتراف بمعاناته على جمهور مستهلكيها. هكذا تم على سبيل المثال في أيرلندا الشمالية، حيث ساعدت المعلومات الإخبارية التي استعرضت عملية السلام في دفع عجلة السلام. (Wolfsfeld: 2001).

وأيضًا لقد أصبح الإعلام أكثر «عولمة» وأقل التزامًا بالروح القومية (Liebes& Kampf :2007). يمكن التوصل عبر استعراض الروايات القومية إلى كسر ثنائية الهوية ونشر هويات أخرى، عابرة ـ للقومية. يمكن أن يوجد آباء الأولاد الذين أضيروا من «الإرهاب» الفلسطيني، لغة مشتركة مع آباء الأولاد الذين قتلوا في العمليات الانتقامية التي قام بها الجيش الإسرائيلي، ويمكن أن ينسج بينهم خطاب روائي آخر، مختلف عن الخطاب الرسمي.

يمكن أن تمثل حالة محمد الدرة (سبتمبر 2000) وجهي الرواية القومية، سواء كمانع أو كمتيح للتقارب. معناها كمانع واضح: مع نشر تقرير شبكة FRANCE2 التي صورها مصور فلسطيني، صورة يظهر فيها محمد الدرة مقتولاً بين يدي والده المرعوب، وأصبحت القصة رواية أسطورية في وسائل الإعلام الفلسطينية. تبنت الصحف الفلسطينية التي استعرضت الأحداث في محور نيتساريم، القصة الأولى بالكامل، كما وصفت في تقرير القناة الفرنسية. ووفقًا لهذه القصة تواجد محمد

ووالده في «محور الشهدا» بنية صافية وهناك قتلهما جنود الجيش الإسرائيلي، المدربون سلفًا على قتل الأطفال بدم بارد. لم تتطرق الصحف الفلسطينية بالمرة لاكتشافات متأخرة للصحفية الألمانية أستير شابيرا والصحفي ورجل الأعمال الفرنسي فيليب كرسانتي، اللذين تشككا في مصداقية التقرير لدرجة القول بأن موت الدرة كان تمثيلية من قبل فلسطينيين لأهداف الدعاية. عادت وسائل الإعلام الفلسطينية ونشرت القصة الأصلية وأسهبت في وصف ومدح أعمال التخليد (صيحات الشوارع والميادين باسم الطفل، وإصدار طوابع بريد ومنشورات إحياء لذكراه، وغير ذلك) مما أصبح في العالم العربي حفاظًا على ذكرى محمد الدرة كشهيد لا مراء في ذلك. أصبح محمد الدرة رمزًا للتضحية الفلسطينية أمام الاحتلال والوحشية الإسرائيلية. لقد مكن كل أب وأم فلسطينية من التجاوب مع والدي محمد الدرة دون أن يفقدوا هم ابنهم، لكن في نفس الوقت يعتبرون مثل والدي محمد كتعويض مادي ورمزي يجدر بالضحايا.

المعقبون الإسرائيليون الذين ردوا على الأنباء في صحافة الإنترنت (Ynet ,Walla) أنتجوا صورة المرآة في هذا العرض. لقد ردوا على اكتشافات كرسنتي وشابيرا بحماس: أحدث المستخدمون صخبًا حول عناصر إسرائيلية وعالمية أيدت الرواية الفلسطينية، مثل العميد جيورا إيالاند (العميد اليساري)، ومنظومة الإعلام الإسرائيلية (المغبونة)، صحفيين ومفكرين (رابوبورت الصحفي اليساري ومائير شاليف الذي يمثل الإعلام الخائن) ووسائل الإعلام العالمية (آن الأوان لأن تتركنا لحال سبيلنا). لقد استخدموا الصياغة الجديدة التي رفضت رواية قتل الجيش الإسرائيلي للطفل، لكي يدعموا الرواية العليا الإسرائيلية التي «خونتها» على حد قولهم هذه العناصر. وبشيوع كبير ظهرت ردود فعل مثل: «يناسب الفلسطينيين أن تطلق عليهم النار ويتهموننا»، «رجاء ألا تبلبلوا كارهينا بالحقائق،» اتهم اليهود دائمًا بتهم دم و «أيضًا» الجيش الإسرائيلي هو أكثر جيوش العالم أخلاقية (أورباخ وليفنشتاين: 2009).

يستهدف بهذه التصريحات أن نقول للعالم كله، ولا يقل عن ذلك للجمهور في الداخل، أن الفلسطينيين ليسوا هم الضحايا وإنما نحن اليهود، الذين كنا دائمًا وأبدًا ضحايا المذابح وتهم الدم، وهم ضحايا الكذب، والدعاية ووحشية الفلسطينيين، حتى في هذه الحالة.

بدا على وجهه أن الجانبين انغلقا على رواياتهم القومية، مع تعظيمهم للنصوص العليا المضادة بالنسبة للهوية القومية، والعلاقة بالأرض والضحايا بصفة خاصة. لكن يوجد بالطبع لقصة الدرة وجه آخر: كان الإعلام الإسرائيلي التقليدي (التقارير الإخبارية في صحيفتي هآرتس ويديعوت أحرونوت) مستعدًا لتبني الرواية الفلسطينية عن ظروف مقتل الدرة بكاملها تقريبًا، على الرغم من أن هذه الرواية عرضت الرواية الإسرائيلية العليا للخطر وعززت الرواية الفلسطينية. وأيضًا قبلت في الإعلام الإسرائيلي بصمت تام دراسات عناصر خارجية، مثل شابيرا وكرسنتي، الذين استطاعوا تعزيز الرواية القومية العليا. إضافة إلى ذلك: بادرت إحدى الصحفيات الإسرائيليات (سيمدار بري، يديعوت أحرونوت) بلقاء «كاسر للهوية» بين والدي محمد الدرة ووالدي الفتاة اليهودية ـ بت حين شاحق، التي قتلت في عملية إرهابية في تل أبيب. وكان الوالدان مستعدان للقاء على خلفية هوية الثكل المشتركة.

اللقاء بين الأهالي الثكلى يعد خطوة ملموسة لكسر حواجز عدم الثقة بين الأطراف. وكانت مقولة الأهالي الثكلى من كلا الجانبين هي: هيا بنا لا ننسى ما حدث لنا، لكن لنحاول توجيه ذاكرتنا المؤلمة إلى اتجاه إيجابي. لنحاول أن نستخلص منها نتائج أيضًا عن المتشابه بيننا، وليس المختلف فقط. أصحاب الهويات الجمعية المتصادمة: الشعب الفلسطيني والشعب اليهودي الذين يحومون كالصقور حول قطعة أرض ويلحقان معاناة بالغة كل بالآخر، لكن حينما يلتقي الضحايا من كلا الجانبين ويعربان عن مشاعر مشتركة من الثكل والأسى، يمكن أن يوجد فهم وتعاطف يتجاوز الوعي القومي الذي يتجسد في الرواية العليا التي تجعل هذا

يقابل ذاك. وفي المقابل، ستصطدم المحاولة المقصودة لتقويض صلاحية رواية الآخر العليا، بمعارضة صارمة. إن طريق تسوية الخلاف لا يجب أن يمر عبر مواجهة كل طرف للآخر مع تشويه روايته العليا. والشك في الرواية العليا معناه سحب أساس تبرير وجودها، وبالتالي أيضًا وجودها. لكن في حال الاستعداد للنزول عن القمم الرمزية للصراع ـ أي من الروايات العليا للطرفين ـ يمكن أن تصبح القصة أكثر إنسانية ولها معنى عالمي. أو إنه يمكن في هذه الحالة اكتشاف أنه يوجد في الجانبين آباء وأطفال لا يتشكل عالم مشاعرهم وتطلعاتهم فقط من خلال قوميتهم، وإنما أيضًا من خلال هوياتهم. إن التعرف على قصص الطرف الثاني ومعرفة معاناته، يعتبر عنصرًا معرفيًا حتميًا في عملية تقليص صراع الهويات ويمكن أن يولد مشاعر تترجم إلى أفعال سياسية، مثل التعويضات والاعتذارات من أجهزة الجانبين. هذا التقدم التدريجي على مسار المصالحة، يشق الطريق إلى السلام الدافئ والثابت بين الشعوب التي كانت تعيش صراعًا عرقيًا قوميًا متواصلًا. (Auerbach,: 2009)

لم ينضج الصراع الإسرائيلي الفلسطيني بعد إلى المرحلة التي وصفناها أعلاه. صحيح أن الإعلام الإسرائيلي، فيما عدا برامج الحوارات، أبدى استعدادًا للتعرف على الرواية الفلسطينية عن محمد الدرة وهضمها، لكن الإعلام الفلسطيني تمسك بقصته وبآثارها الكبيرة على الذاكرة والرواية العليا الفلسطينية. وأبرز مظاهر هذا التوجه يوجد في تقرير الصحف الفلسطينية عن حمل أم محمد الدرة، مع اقتباس دعوتها: «رحم الأمهات الفلسطينيات أقوى من مفاعل ديمونه». وبمعنى آخر: نحن الفلسطينيين لسنا مستعدين بعد لاعتبار المرأة والأم مجرد امرأة وأم، يوجد مثلها أيضًا في الجانب الإسرائيلي. الأم الفلسطينية هي أولًا وقبل كل شيء رحم، أي سلاح يمكن أن يعوض الفلسطينيين عن دونيتهم العسكرية أمام العدو الصهيوني.

الخلاصة

في نهاية العقد الأول من القرن الحادي والعشرين ـ تبدو توقعات تسوية الخلاف الإسرائيلي الفلسطيني سلبية للغاية. وفشلت محاولات رأب الصدع بين الأطراف من خلال الديبلوماسية التقليدية الواحدة تلو الأخرى. لقد دفعت الرؤية الواعية للوضع بالباحثين أجهاده ومالي إلى طرح الزعم بأنه من المحتمل ألا يمكن المضي قدمًا دون التعامل باحترام مع الماضي. وفي رأيهما ربما يكون قد آن الأوان لمعالجة قضايا مؤلمة من الماضي بين الطرفين المتصارعين والعثور على وسيلة للتوفيق بينهما؛ بلغتنا: محاولة طريقة استيعاب الروايات القومية (Malley, Agha: 2009).

الروايات القومية هي «صخرة وجود» الشعوب التي تعيش صراع هوية. والتحصن بها يمنح قوة وتحملًا للبقاء في صراع حاد ودموي دائر بينهما عبر السنين. ومع ذلك نجد أن الشعوب التي كانت تعيش في صراعات كهذه، وجدت طريقا لتحدي المانع. حكومة الصين واليابان، ألمانيا وفرنسا، ألمانيا وبولندا، تركيا وأرمينيا، كلها وجدت أن طريق تسوية الخلافات يمر عبر التعرف على الروايات المتعارضة التي يرددها كل طرف عن أحداث كارثية من الماضي. فهل نضج الصراع الإسرائيلي الفلسطيني لاتخاذ خطوة هضم واحتواء الروايات؟ الإجابة التي يقدمها هذا المقال: لا! لكن إضافة إلى هذه النتيجة المتشائمة يوجد أيضًا بصيص أمل. ونزعم أن التمييز بين الروايات العليا والروايات القومية يمكن أن يشق طريقًا إلى استيعاب الروايات وكسر موانع عدم الثقة بين الأطراف. الرواية العليا ـ أي القصة العليا التي تجسد الأخلاقيات القومية للشعوب المتشددة ـ لا يمكن المساومة عليها وتسويتها. رفضها يمكن أن يفاقم من إحساس التهديد والرغبة في الدفاع عن الوجود القومي، من خلال تطرف المواقف الوطنية. في المقابل، دراسة روايات معينة، قصص حدث موجدة للهويات حول أحداث محددة، من خلال تفكيك الرواية إلى مكوناتها الخمسة الأساسية ومحاولة التوصل إلى اتفاق بشأنها جميعًا أو بعضها، أمر ممكن. معرفة

رواية الطرف الآخر لا يمكن أن تقوض مصداقية إجابات الأسئلة الثلاثة الأساسية للرواية القومية العليا ـ من نحن؟ وما هي علاقتنا بأرض الصراع وما هو مكاننا في التاريخ على محور الضحايا؟ إن معرفة الروايات القومية للطرف الثاني يمكن أن تتم ـ وهي بالفعل تتم في السنوات الأخيرة في مقابل تصعيد الصراع الإسرائيلي الفلسطيني ـ كمبادرة خاصة بين الأسر الثكلى من الجماعتين. هذه الخطي الصغيرة يمكن أن تنبت هويات مختلطة تكسر ثنائية «نحن وهم»، وتوجد فهمًا وتعاطفًا مع الطرف الثاني. والطريق طويل من هنا حتى نهاية الصراع، لكن «مشوار الألف ميل يبدأ بخطوة واحدة» كما يقول الصينيون. التجربة الصينية- اليابانية في احتواء الروايات كوسيلة لكسر مانع بين الأعداء، مثل باقي الدول التي ذكرت في هذا المقال، يمكن أن تخط طريقًا أيضًا للأطراف المتشددة في الصراع الإسرائيلي الفلسطيني.

obeikandl.com